بقلم : عبد الغني أحمد ناجي

تآلف القلوب..

■■ من داخل النفس البشرية تتفجر ينابيع السعادة الغامرة، وإن كان الظاهر. ظاهر الإنسان لا ينم عن شيء من السعادة.

ولا تسعد النفس إلاّ إذا كان القلب من الصفاء والنقاء بحيث لا يزحمهما فيه غلّ موار أو حقد دفين، أو عداوة تغلي، فهذه أمراض قلبية تعصر القلب عصراً، وتطرد منه كل رضا واطمئنان، وإذا ذهب هذان كانت النفس تعسة شقية ■■

ولما كان الله يريد لعباده الخير والسعادة في حياتهم فقد أمرهم بكل ما يصفي القلوب من أمراضها، والنفوس من أدوائها لترفرف أعلام السعادة الحقة على دنيا الأفراد والمجتمعات، ويحس الجميع متعة الحياة، فينصرفوا إلى عبادة خالق الحياة بدل الانصراف عن الله، أو تسخير الحياة للشقاق والعداء.

ولا نود أن نذهب أو نحيل إلى نظريات علم النفس وتجاربه، وإنما ندعو المسلم الحصيف أن يتحسس نفسه في حالتين: حالة صفاء وصلح مع من يعايش أو يعاشر، وحالة عداء وخصام لبعض من في مجتمعه الصغير أو الكبير، إنه - بلا شك - واجدٌ نفسه في الحالة الأولى وكأنها في روضة تعجب وتسعد أو تأسر وتسحر، أزهارها الرضا والاطمئنان، والسكينة والأمان، وكيف لا يسعد من يقطف من هذه الزهور ؟!

وإنه واجد نفسه في الحالة الثانية في قلق قاتل، وحيرة مربكة، وهمّ عاصر وخوف واضطراب، وكيف يشعر بسعادة من يعيش بين براثن هذه الوحوش المعنوية ؟ فأسماؤها ترعد وترعب « قلق - اضطراب - خوف - همّ ».

فإذا كان رسول الله ﷺ قد قال في موقف توجيهي: « ... التقوى ها هنا » وأشار إلى صدره أي قلبه - فإن القياس يبيح أن نقول: السعادة ها هنا أي في الصدر والقلب.

والقلب - إذنْ - قد يترع بالرضا فيرسل السعادة كالعطر الفوّاح، وقد يمتلىء بالضيق والتبرم فينفث السخط والألم، ومن ثَمّ جاءت تعاليم السماء لتستل من قلب الإنسان كل مآثر السخط المدمر لتحل محلها كل آيات الرضا المسعد البناء.

وإذا ذهبنا نستعرض ونبحث، وجدنا ما يمتع ويقنع، فالإسلام قد أولى هذه المضغة في الإنسان كل عناية واهتمام لأنها مصدر الخير، ومنبع السعادة كما أسلفنا، فيأتي تقرير الرسول ﷺ بادىء ذي بدء معلناً للمسلمين: أن مظاهر الحياة ومباهج الدنيا لن تغني عن المرء شيئاً في ميزان الله، لأن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأشكال وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال: « إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ».

ثم تأتي توجيهات الإسلام تترى لتصلح القلب، وتغرس فيه الألفة والمحبة للخير، فتآلف القلوب - وهو ما نقصده بهذه الخاطرة - أمر جدّ خطير في تفجير ينابيع السعادة في كل مجتمع ينشدها، وعليه تعتمد قوة الفرد والمجموع، فكل وسيلة تؤدي إلى هذا التآلف والتعاطف دعا إليها الإسلام ليحقق أنبل هدف من رسالته وهو سعادة البشرية في الدنيا والآخرة.

فالعبادات كلها ذات أسرار وأهداف، ولا نُبعِدُ إذا قلنا: إن من أهم أهدافها تأكيد هذا التآلف في القلوب، ومن ثم كانت الدعوة إلى صلاة الجماعة شديدة وملحّة، وكان الجزاء عليها يفوق صلاة الفذّ بأضعاف الجزاء، لماذا ؟ لحرص الإسلام الشديد على أن يجتمع المسلمون في لقاء روحي خمس مرات في اليوم بوجه باشّ، ونفس صافية، وقلب سليم. أليس ذلك كفيلاً بغرس الألفة والمحبة في القلوب حتى تتوجه الجوارح للعمل الجاد، والجهد المثمر في الحياة ؟ حتى إن ما يُتوقّع من النفور عند ذلك اللقاء حرّمه الإسلام أو كرِهه، فأكل الطعام الذي من شأنه أن تنبعث من آكله روائح كريهة مكروه للمسلم عندما يعزم على الذهاب إلى المسجد للقاء ربه، ولقاء عباد الله. والتطيّب مندوبٌ ومسنون عند ذلك اللقاء، والنظافة من الإيمان وواجبة لهذا الغرض: ليكون الجذب بين المسلم وأخيه، فإذا تصافحا باليد تصافحت النفوس والقلوب، وكان المسلمون كما أراد لهم خالقهم فيما رواه النبي ﷺ: « مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوادهم وَتَعاطفهم وَتَراحُمهم كَمَثَل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ».

ولكن هذا التآلف القلبي شديد الأثر والخطر في دعم السعادة بين الناس، والإسلام ينشد تلك السعادة ليَفْرَغ الناس للعبادة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ... ﴾ فقد فجّر الإسلام كل ينابيع ذلك التآلف، وولج بالمسلمين كل المنافذ التي تهب منها

في نهج القرآن

نسماته العبقة ، وأريجه الفوّاح ؛ فالكلمة الطيبة يعتبرها الإسلام صدقة لأثرها الكبير في دعم التآلف ، وتطهير القلوب ، وغرس المودة ، وإفشاء السلام سنّة مؤكدة ، وردّه واجب ، ولا يخفى ما فيهما من إيقاظ عواطف الأخوة ، وتآلف القلوب .

فرسول الله ﷺ يُسأل عن أي الإسلام خير فيجيب السائل بقوله : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » ، ولا غرابة في جعل هذين الأمرين من خير تعاليم الإسلام مع يُسرهما وسهولتهما بجانب أعمال أخرى تستدعي التضحية والفداء ، ونقول لا غرابة بعد ما ظهر الأثر ، وعرف الهدف ، فالهدف تآلف قلبي سيفضي حتماً إلى تضامن وتعاون ، وهذان محققان للمسلمين في مجتمعاتهم الصغيرة والكبيرة خيراً أي خير ، فالنصر على الأعداء - وهو قمة الأهداف - لا يتحقق إلاّ بذلك التضامن المركوز على تآلف القلوب وصفاء النفوس .

وإذا ذهبنا نجلّي الحكمة من فضائل الإسلام وجدنا معظمها يرتكز حول الهدف النبيل ، وهو التآلف والتحابّ ، فعيادة المريض ، والتزاور في الأعياد وفي غير الأعياد ، والتهادي ولو بكراع شاة ، والبشاشة وانطلاق الأسارير في التعامل وعند اللقاء ، والتسامح لدى الاقتضاء والبيع والشراء ، والتواضع وعدم الكبرياء والخيلاء ، والتصدق والإنفاق في تستر وخفاء ، كل هذا - ونظيره في الإسلام كثير - دعا إليه الإسلام بشدة لهذا الهدف أيضاً ؛ ليؤكد التآلف القلبي حتى تتعاون الجهود وتتضافر الخطا : خطا اتباع الإسلام على طريق الخير وإلى الخير ، فما أنبل الهدف والنتيجة ، وما أفضل الوسائل والمقدمات ، وقبلُ وبعدُ ، ما أحقَّ الدعوة في عالم البشر ، وما أحسن التشريع الحكيم الذي يريد لهؤلاء البشر سعادة الدنيا والآخرة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... ﴾ ﴿ ... لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

والإسلام في نظرته الفاحصة ، ومعياره الدقيق ليس مبالغاً إذا نفى الإيمان أو كماله عمَّن لا يتوفر لديه ذلك الحبّ والتآلف بينه وبين من يعاشر ، قال ﷺ : « لن تؤمنوا حتى تحابّوا » لأن هذا التآلف ، وذلك الحب هما الدعامة القوية التي سيقوم عليها تعاون الأفراد والمجتمع .

ومن ثَمَّ وجدنا رسول الله ﷺ حينما ينزل المدينة مهاجراً يعمد أولاً إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ليكوّن المجتمع القوي المتآلف الذي يعتمد عليه في بناء دولة قوية ناهضة ، وقد تحققت النتيجة : نتيجة التآلف التي تشبه المعجزة حينما كان المسلم في المعارك يقف دون أخيه ليفتديه بروحه متمنياً الموت قبله ، وهذا أروع مظاهر الفداء .

وإذا كان علماء النفس ينصحون المريض بالاكتئاب أن يغشى المجتمعات ، ويَدَعَ الانطواء والانزواء ، فإن الإسلام الحنيف لا يترك الشخص حتى يصاب بداء الاكتئاب ويحار في العلاج ، وإنما يسلك مبدأ الوقاية التي هي خير من العلاج ، فينصح - بشدة وإلحاح - بالتآلف القلبي ، لأنه يحمي الشخص من معظم الأمراض النفسية ، وفي مقدمتها ذلك الاكتئاب ، حتى كظم الغيظ - وإن ادّعى المدعون أنه يسبب الألم النفسي - فهو مسبّبٌ ما يذهب ذلك الألم إن حدث ، وذلك بغرس الودّ والتحاب في القلوب .

والود العميق في القلب قاضٍ على كل ألم نفسي تجاه الآخرين ، بمعنى أن كظم الغيظ بين شخصين سيكون مرّة واحدة مع ما يحدثه من ألم وقتي ، ثم يكون ينبوعاً تتفجر منه الألفة والمودة بدل التباغض الذي يوتّر الأعصاب ، ويقضّ المضجع ، ويحرم الشخص الراحة والهدوء ، وفي ذلك من الألم النفسي ما يفوق أضعاف ما يحدثه كظم الغيظ ، ومن ثَمَّ مدح القرآن الكاظمين الغيظ بالدعوة إليه ، والترغيب فيه كوسيلة من وسائل التآلف القلبي الذي نحن بصدد الحديث عنه لتجلية جدواه قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وبعد ؛ فلعلّنا ندرك أن تآلف القلوب هو سر السعادة المنشودة ، ولعلنا بعد الإدراك نسير على الدرب ونتبع النهج اللذين يؤديان إلى هذا الهدف النبيل ، ولعلنا إن وصلنا أن نعرف قيمة تلك النعمة : نعمة التآلف والتعاطف : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ .

ولعلنا نستعين الله تعالى في تحقيق هذا الهدف النبيل : هدف تآلف القلوب ، إذ هو وحده القادر على أن يحقق لنا ذلك ، فهو القائل لنبيّه عليه الصلاة والسلام في هذا المجال : ﴿ ... لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .